

تفسير سورة الزخرف

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَمِّمٌ ﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ وَإِنَّمْ فِي آدَمُ الْكِتَابِ لَدَيْنَا عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٣﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٤﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٥﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَنْصُيًّا مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧﴾

يقول تعالى: ﴿ حَمِّمٌ . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ أى: البين الواضح الجلى المعانى والالفاظ؛ لانه نزل بلغة العرب التى هى أفصح اللغات للتخاطب بين الناس؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ ﴾ أى: أنزلناه ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أى: بلغة العرب فصيحا واضحا، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى: تفهمونه وتدبرونه، كما قال: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾: بين شرفه فى الملا الاعلى، ليشرفه ويعظمه ويطيحه أهل الارض، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أى: القرآن ﴿ فِي أُمِّ الْكِتَابِ ﴾ أى: اللوح المحفوظ، قاله ابن عباس، ومجاهد، ﴿ لَدَيْنَا ﴾ أى: عندنا، قاله قتادة وغيره، ﴿ لَعَلِيٌّ ﴾ أى: ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل، قاله قتادة، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أى: محكم برئء من اللبس والزيغ. وهذا كله تشبيه على شرفه وفضله، كما قال: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ . لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٨٠] وقال: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ . فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ . مُرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس: ١١ - ١٦]؛ ولهذا استنبط العلماء، رحمهم الله، من هاتين الآيتين: أن المحدث لا يمس المصحف؛ لان الملائكة يعظمون المصاحف المشتملة على القرآن فى الملا الاعلى، فاهل الارض بذلك اولى واحرى، لانه نزل عليهم، وخطابه متوجه إليهم، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم، والانقياد له بالقبول والتسليم، لقوله: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾.

وقوله: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾: اختلف المفسرون فى معناها، فقيل: معناها: التحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذبكم ولم تفعلوا ما أمرتم به؟ قاله ابن عباس، ومجاهد والسدى، واختاره ابن جرير. وقال قتادة فى قوله: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا ﴾: والله لو أن هذا القرآن رفع حين رده أوائل هذه الامة لهلكوا، ولكن الله عاد بعائده ورحمته، وكرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة، أو ما شاء الله من ذلك. وقول قتادة لطيف المعنى جدا، وحاصله أنه يقول فى معناه: أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاهم إلى الخير والذكر الحكيم - وهو القرآن - وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل أمر به ليهتدى من قَدَّرَ هدايته، وتقوم الحججة على من كتب شقاوته.

ثم قال تعالى - مسليا لنبىه فى تكذيب من كذبه من قومه، وأمراله بالصبر عليهم -: ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا

من نبيهم في الأولين ﴿ آى : فى شيع الاولين ﴾ ، ﴿ وما بأنهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون ﴾ آى : يكذبونه ويسخرون به .
 وقوله : ﴿ فأهلكنا أشد منهم بطشاً ﴾ آى : فأهلكنا المكذبين بالرسل ، وقد كانوا أشد بطشاً من هؤلاء
 المكذبين لك يا محمد . كقوله : ﴿ ألقم سيروا فى الأرض فيظنوا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد
 قوة ﴾ [غافر : ٨٢] والآيات فى ذلك كثيرة . وقوله : ﴿ ومضى مثل الأولين ﴾ : قال مجاهد : ستهم . وقال قتادة :
 عقوبتهم . وقال غيرهما : عبرتهم ، آى : جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين أن يصيبهم ما أصابهم ،
 كقوله فى آخر هذه السورة : ﴿ فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾ [الزخرف : ٥٦] . وكقوله : ﴿ سنت الله البى قد حلت
 فى عباده ﴾ [غافر : ٨٥] وقال : ﴿ ولئن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ [الاحزاب : ٦٢] .

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾ الذى جعل
 لكم الأرض مهتداً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون ﴿ والذى نزل من السماء ماءً بقدر
 فأنشأنا به بلدة ممتاً كذلك نخرجون ﴾ والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما
 تركبون ﴿ لتستروا على ظهوره ثم تذكروا نعمه ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحن الذى سخر لنا
 هذا وما كنا له مقرنين ﴿ وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ ﴿

يقول تعالى : ولئن سألت - يا محمد - هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره : ﴿ من خلق
 السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾ آى : ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله وحده لا شريك له ،
 وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الاصنام والانداد . ثم قال : ﴿ الذى جعل لكم الأرض مهتداً (١) ﴾ آى :
 فرأشاً قراراً ثابتة ، يسىرون عليها ويقومون وينامون ويصرفون ، مع أنها مخلوقة على تيار الماء ، لكنه
 أرساها بالجبال لثلا تמיד هكذا ولا هكذا ، ﴿ وجعل لكم فيها سبلاً ﴾ آى : طرقاً بين الجبال والودية ﴿ لعلكم
 تهتدون ﴾ آى : فى سيركم من بلد إلى بلد ، وقطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم . ﴿ والذى نزل من السماء ماءً
 بقدر ﴾ آى : بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم وشربكم ، لانفسكم ولانعامكم . ﴿ فأنشأنا به بلدة ممتاً ﴾
 آى : أرضاً ممتة ، فلما جاءها الماء اهتزت وربت ، وأبنت من كل زوج بهيج ثم نبه بإحياء الأرض على
 إحياء الاجساد يوم المعاد بعد موتها ، فقال : ﴿ كذلك نخرجون ﴾ .

ثم قال عز وجل : ﴿ والذى خلق الأزواج كلها ﴾ آى : مما تنبت الأرض من سائر الاصناف ، من نبات
 وزروع وثمار وأزاهير ، وغير ذلك ، ومن الحيوانات على اختلاف أجناسها واصنافها ، ﴿ وجعل لكم من
 الفلك ﴾ آى : السفن ﴿ والأنعام ما تركبون ﴾ آى : ذلها لكم وسخرها ويسرها لاكلكم لحومها ، وشربكم
 البانها وركوبكم ظهورها ، ولهذا قال : ﴿ لتستروا على ظهوره ﴾ آى : لتمكنين مرتفقين ﴿ على ظهوره ﴾
 آى : على ظهور هذا الجنس ، ﴿ ثم تذكروا نعمه ربكم ﴾ آى : فيما سخر لكم ﴿ إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان
 الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ آى : مقاومين . ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه . قال ابن عباس ،
 وقاتة ، والسدى ، وابن زيد : ﴿ مقرنين ﴾ آى : مطيقين . ﴿ وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ آى : لصاترون إليه بعد
 مماتنا ، وإليه سيرنا الاكبر . وهذا من باب التشبيه بسير الدنيا على سير الآخرة ، كما نبه بالزاد الدنيوى

(١) « مهتداً » : قراءة الجمهور ، وأيضا الحافظ ابن كثير .

على الزاد الاخرى فى قوله ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وباللباس الدنيوى على الاخرى فى قوله تعالى: ﴿ وَبِئْسَ وَهَابًا وَبِئْسَ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرًا ﴾ [الاعراف: ٢٦].

ذكر الاحاديث الواردة عند ركوب الدابة :

روى الإمام أحمد عن على بن ربيعة قال: رأيت عليا أتى بدابة، فلما وضع رجله فى الركاب قال: بسم الله. فلما استوى عليها قال: الحمد لله، ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾، ثم حمد الله ثلاثا، وكبر ثلاثا، ثم قال: سبحانك، لا إله إلا أنت، قد ظلمت نفسى فاعفُ لى. ثم ضحك، فقلت له: مم ضحكت يا أمير المؤمنين؟ فقال: رأيتُ رسول الله ﷺ فعل مثل ما فعلت، ثم ضحك. فقلت: مم ضحكت يا رسول الله؟ فقال: يعجب الرب من عبده إذا قال: رب، اغفر لى. ويقول: علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيرى». وهكذا رواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، وقال الترمذى: حسن صحيح (١). وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر، أن النبى ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثا ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾. ثم يقول: «اللهم إنى أسألك فى سفرى هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى. اللهم، هون علينا السفر واطو لنا البعيد. اللهم، أنت الصاحب فى السفر، والخليفة فى الأهل. اللهم، اصحبنا فى سفرنا، واخلفنا فى أهلنا». وكان إذا رجع إلى أهله قال: «أيوبن تابون إن شاء الله، عابدون، لربنا حامدون». وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائى والترمذى (٢). وروى أحمد عن محمد بن حمزة؛ أنه سمع أباه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «على ظهر كل يعير شيطان، فإن ركبتموها فسموا الله، عز وجل، ثم لا تقصروا عن حاجاتكم» (٣).

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١﴾ أَرَأَيْتُمْ مَتَى يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَانَكُمْ بِالْبَيْنِ ﴿٢﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا طَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٣﴾ أَوْ مَنْ يَنْسُوهُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَايِمِ عَبْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنَّتُمْ آشْهَادُ خَلْقِهِمْ سَكَتًا يَشْهَدُ لَهُمْ وَنَسُوا نَسْوًا ﴿٥﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَالَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فيما افتروه وكذبوه فى جعلهم بعض الانعام لطواغيتهم وبعضها لله، كما ذكر الله عنهم فى سورة «الانعام»، فى قوله: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِثْلَ فَرَا مِنْ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الانعام: ١٣٦]. وكذلك جعلوا له من قسمى البنات والبنين أحسهما وأرداهما وهو البنات، كما قال تعالى: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]. وقال هاهنا: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾.

(١) المسند (٧٥٣) وأبو داود (٢٦٠٢) والترمذى (٣٤٤٦) والنسائى فى الكبرى (٨٨٠٠).

(٢) المسند (٦٣١١) ومسلم (٤٢٥/١٣٤٢) وأبو داود (٢٥٩٩) والنسائى فى الكبرى (١٠٣٨٢) والترمذى (٣٤٤٧).

(٣) المسند (٤٩٤/٣) وقال الهيمى فى الزوائد (١٠/١٣١): «رجالاه رجال الصحيح غير محمد بن حمزة وهو ثقة».

ثم قال: ﴿أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ؟﴾ وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار. ثم ذكر تمام الإنكار فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أى: إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات يانف من ذلك غاية الأنفة، وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به، ويتوارى من القوم من خجله من ذلك، يقول تعالى: فكيف تائفون أنتم من ذلك، وتسنونوه إلى الله عز وجل؟

ثم قال: ﴿أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْجِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أى: المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلى منذ تكون طفلة، وإذا خاصمت فلا عبارة لها، بل هي عاجزة عيية، أو من يكون هكذا ينسب إلى جناب الله عز وجل؟!، فالأشئ ناقصة الظاهر والباطن، فى الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلى وما فى معناها، ليجبر ما فيها من نقص وأما نقص معناها، فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار عند الانتصار، لا عبارة لها ولا همة، كما قال بعض العرب وقد بشر ببيت: «ما هى بنعم الولد: نصرها باليكاء، وبرها سرقة».

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ أى: اعتقدوا فيهم ذلك، فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك، فقال: ﴿أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ﴾ أى: شاهدوه وقد خلقهم الله إناثا، ﴿سَتَكْتَبُ شَهَادَتَهُمْ﴾ أى: بذلك، ﴿وَيَسْأَلُونَ﴾ عن ذلك يوم القيامة. وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد. ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ أى: لو أراد الله الحلال بيننا وبين عبادة هذه الاصنام، التى هى على صور الملائكة التى هى بنات الله، فإنه عالم بذلك وهو يقررنا عليه، فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ: أحدها: جعلهم لله ولدا، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوا كبيرا.

الثانى: دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا.

الثالث: عبادتهم لهم مع ذلك كله، بلا دليل ولا برهان، ولا إذن من الله عز وجل، بل بمجرد الآراء والاهواء، والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء، والخطب فى الجاهلية الجاهلاء.

الرابع: احتجاجهم بتقديرهم على ذلك قدرا، وقد جهلوا فى هذا الاحتجاج جهلا كبيرا، فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار، فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَخْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

وقال فى هذه الآية - بعد أن ذكر حججهم هذه -: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى: بصحة ما قالوه واحتجوا به ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، أى: يكذبون ويتقولون. وقال مجاهد فى قوله: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أى: ما يعلمون قدرة الله على ذلك.

﴿أَمْ أَلَيْنَا مَكْنَبٌ مِنْ قَبْلِهِ. فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ ﴿فَلْ أَوْلَوْا جُنُودَهُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا

أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢١﴾ فَانظُرْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى منكرا على المشركين في عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ؟﴾ أي: من قبل شركهم، ﴿فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ أي: فيما هم فيه، أي: ليس الامر كذلك، كقوله: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥] أي: لم يكن ذلك. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ أي: ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والاجداد، بانهم كانوا على أمة، والمراد بها الدين هاهنا، وفي قوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّةُ أُمَّةٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الانبيا: ٤٩٢].

وقولهم: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ أي: وراهم ﴿مُهْتَدُونَ﴾ دعوى منهم بلا دليل.

ثم بين تعالى أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل، تشابهت قلوبهم، فقالوا مثل مقالته: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَىٰ الدِّينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْتَوٍ . أَوَاصُوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُقْرِفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ تَهْتَدُونَ وَمَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ؟﴾ أي: ولو علموا وتيقنوا صحة ما جتتهم به، لما اتقادوا لذلك بسوء قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله. قال الله تعالى: ﴿فَانظُرْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: من الأمم المكذبة بأنواع من العذاب، كما فصله تعالى في قصصهم، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ أي: كيف بادوا وهلكوا، وكيف نحى الله المؤمنين؟

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٣﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٢٤﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ ﴿٢٥﴾ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَذِهِ أُمَّةً وَآبَاءَهُمْ حَقًّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٢٧﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٢٩﴾ أَهَرَأَيْسُمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ إِذْ نَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سُخْرِيًّا وَرَحْمَتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِسُيُوتِهِمْ سُفْهًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣١﴾ وَلسُيُوتِهِمْ أَنْوَابًا وَسُررًا عَلَيْهَا يَتَكَلَّمُونَ ﴿٣٢﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله وخليفه إمام الخفاء، ووالد من بعث بعده من الأنبياء، الذي تتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها: أنه تبرا من أبيه وقومه في عبادتهم الاوثان، فقال: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ أي: هذه الكلمة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الاوثان، وهي «لا إله إلا الله»، أي: جعلها دائمة في ذرته يقتدى به فيها من هداة الله من ذرية إبراهيم، عليه السلام، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: إليها. وقال عكرمة، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم في قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ يعني: لا إله إلا الله، لا يزال في ذرته

من يقولها. ورؤى نحوه عن ابن عباس. وقال ابن زيد: كلمة الإسلام. وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة.

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ مَنَّتُ لَوْلَا﴾ يعني: المشركين، ﴿وَأَبَاءَهُمْ﴾ أى: فتطاول عليهم العمر فى ضلالهم، ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أى: بين الرسالة والندارة. ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ أى: كابرته وعاندوه ودفعوا بالصدور والرواح كفرًا وحسدًا وبغيا، ﴿وَقَالُوا﴾ أى: كالمعترضين على الذى أنزله تعالى وتقدس: ﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتِينَ عَظِيمٍ﴾ أى: هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير فى أعيانهم من القريةين؟ يعنون مكة والطائف. قاله ابن عباس، وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظى، وقتادة، وقد ذكر غير واحد، منهم قتادة: أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود الثقفى. وقال زيد بن أسلم، والضحاك، والسدى: يعنون الوليد بن المغيرة، ومسعود بن عمرو الثقفى. وعن مجاهد: عمير بن عمرو بن مسعود الثقفى. وعنه أيضا: أنهم يعنون الوليد بن المغيرة، وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفى. وعن مجاهد: يعنون عتبة بن ربيعة بمكة، وابن عبد ياليل بالطائف. وقال السدى: عنوا الوليد بن المغيرة، وكنانة بن عبد عمرو بن عمير الثقفى. والظاهر: أن مرادهم رجل كبير من أى البلديتين كان. قال الله تعالى رادا عليهم فى هذا الاعتراض: ﴿أَنَّهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ ؟ أى: ليس الأمر مردودا إليهم، بل إلى الله، عز وجل، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فإنه لا ينزلها إلا على أركى الخلق قلبا ونفسا، وأشرفهم بيتا، وأطهرهم أصلا.

ثم قال تعالى مبينا أنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الاموال والأرزاق والعقول والفهوم، وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة، فقال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾. وقوله: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا﴾ قيل: معناه: ليسخر بعضهم بعضا فى الاعمال، لاحتياج هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، قاله السدى وغيره. وقال قتادة، والضحاك: ليملك بعضهم بعضا. وهو راجع إلى الأول. ثم قال: ﴿وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرًا مَّا يَجْمَعُونَ﴾ أى: رحمة الله بخلقه خير لهم مما بأيديهم من الاموال ومتاع الحياة الدنيا.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أى: لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطائنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال، هذا معنى قول ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسدى، وغيرهم ﴿لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْتِيَهُمْ سِقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ أى: سلالم ودرجا من فضة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أى: يصعدون، ﴿وَلِيُؤْتِيَهُمْ آبَؤَابَا﴾ أى: أخلاقا على آبوابهم ﴿وَسُرْرًا عَلَيْهَا يُتَكَوَّنُ﴾ أى: جميع ذلك يكون فضة، ﴿وَزُخْرُفًا﴾ أى: وذهبًا، قاله ابن عباس، وقتادة، والسدى، وابن زيد. ثم قال تعالى: ﴿وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله تعالى، أى: يجعل لهم بحسناتهم التى يعملونها فى الدنيا مآكل ومشارب، ليوافوا الآخرة وليس لهم عند الله حسنة يجزيهم بها، كما ورد به الحديث الصحيح (١). ثم قال سبحانه: ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أى: هى لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد غيرهم. وفى الصحيحين وغيرهما: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشربوا

في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة (١) . وإنما خولهم الله تعالى في الدنيا لحقارتها، كما روى الترمذى وابن ماجه عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ : «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى منها كافرا شربة ماء أبدا»، قال الترمذى: حسن صحيح (٢) .

﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَنِيَّ وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسُ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَتْكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْىَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمِعْ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّمَا لَذِكْرُ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُنْشَرُونَ ﴿٤٤﴾ وَشَلَّ مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَعْمَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ﴾ أى: يتعاسى ويتغافل ويعرض ﴿عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ والعشا في العين: ضعف بصرها. والمراد هاهنا: عشا البصيرة، ﴿نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ كقوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وكقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وكقوله: ﴿وَقَضَيْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِيُتْلَىٰ لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْحَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾. حتى إذا جاءنا ﴿أى: هذا الذى تغافل عن الهدى نقض له من الشياطين من يضلّه، ويهديه إلى صراط الجحيم. فإذا وافى الله يوم القيامة يتبرم بالشیطان الذى وكل به، ﴿قَالَ يَا لَيْتَ بَنِيَّ وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسُ الْقَرِينُ﴾ أى: فبس القرين كنت لى فى الدنيا. وقرأ بعضهم: «حتى إذا جاءنا» يعنى: القرين والمقارن. والمراد بالمشرقين هنا هو ما بين المشرق والمغرب. وإنما استعمل هاهنا تغليبا، كما يقال: القمران، والعمران، والأبوان، . قاله ابن جرير وغيره.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أى: لا يفتى عنكم اجتماعكم فى النار واشتراككم فى العذاب الاليم. وقوله: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْىَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى: ليس ذلك إليك، إنما عليك البلاغ، وليس عليك هدايم، ولكن الله يهدى من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الحكم العدل فى ذلك. ثم قال: ﴿فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ أى: لا بد أن نتقم منهم ونعاقبهم، ولو ذهب أنت، ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾ أى: نحن قادرون على هذا وعلى هذا. ولم يقض الله رسوله حتى أقر عينه من أعدائه، وحكمه فى نواصيمهم، وملكه ما تضمنته صياصيمهم. هذا معنى قول السدى، واختاره ابن جرير. وفى الحديث: «النجوم أمانة للسماء، فإذا ذهب أتى النجوم أتى السماء ما تُوعَدُ، وأنا أمانة لأصحابي، فإذا ذهب أتى أصحابي ما يوعدون» (٣) .

(١) البخارى (٥٦٣٣)، ومسلم (٤/٢٠٦٧) .

(٢) الترمذى (٢٣٢٠٠) وابن ماجه (٤١٦٠) .

(٣) مسلم (٢٠٧/٢٥٣١) .

ثم قال تعالى: ﴿فَاسْتَسِمْكَ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ إِنَّا كُنَّا عَلَيْكَ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أى: خذ بالقرآن المنزل على قلبك، فإنه هو الحق، وما يهدى إليه هو الحق المفضى إلى صراط الله المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، والخير الدائم المقيم.

ثم قال جل جلاله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ قيل: معناه: لشرف لك ولقومك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدى، وابن زيد. واختاره ابن جرير، ولم يحك سواه. وعن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر في قريش لا يزارعهم فيه أحد إلا أكبه الله على وجهه ما أقاموا الدين». رواه البخارى (١). وقيل: معناه: أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم، فهم أفهم الناس له، فينبغى أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخُلص من المهاجرين السابقين الأولين، ومن شابههم وتابعهم. وقيل: معناه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أى: لتذكير لك ولقومك، وتخصيصهم بالذكر لا ينغى من سواهم، كقوله: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الانبيا: ١٠]، وكقوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

﴿وَسَوْفَ تَسْأَلُونَ﴾ أى: عن هذا القرآن وكيف كنتم فى العمل به والاستجابة له. وقوله: ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَعْمَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ أى: جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد، كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رُسُلًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَاهُمْ مِنْهَا يَصْحَكُونَ ﴿١٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتَيْهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعُنُقِ لَعَنَهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ وَقَالُوا يَا تَأْتِيهِ السَّحَابُ آدِيمًا لَنَا رَبٌّ كَمَا رَبُّكَ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿١٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿٢٠﴾﴾

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله موسى، عليه السلام، أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة، والاتباع والرعايا، من القبط وبنى إسرائيل، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وأنه بعث معه آيات عظيمة، كيداه وعصاه، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ومن نقص الزروع والآنفس والثمرات، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والالتقياد لها، وكذبوها وسخروا منها، وضحكوا من جاءهم بها. ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتَيْهَا﴾، ومع هذا ما رجعوا عن غيهم وضلالهم، وجهلهم وخيالهم. وكلما جاءتهم آية من هذه الآيات يضرعون إلى موسى، عليه السلام، ويتلطفون له فى العبارة بقولهم: ﴿يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ﴾ أى: العالم، قاله ابن جرير. وكان علماء زمانهم هم السحرة. ولم يكن السحر عندهم فى زمانهم مذموما، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم؛ لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تناسب ذلك، وإنما هو تعظيم فى زعمهم، ففى كل مرة يَدْعُونَ موسى، عليه السلام، إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا ويرسلوا معه بنى إسرائيل. وفى كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ

وَالْقَلْبَ وَالصَّفَادِعَ وَالذَّمَّ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ . وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشِفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْفُؤَادِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿١٣٣ - ١٣٥﴾ .

﴿ وَتَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ . قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ﴿١٣٣﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿١٣٤﴾ فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَهُ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿١٣٥﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتْسِقِينَ ﴿١٣٦﴾ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا أُنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ مَّتَّهَرَةً فَأَعْرَفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٧﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴿١٣٥ - ١٣٧﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده: أنه جمع قومه، فنادى فيهم متبجحا مفتخرا بملك مصر وتصرفه فيها: ﴿الَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ قال قتادة: قد كانت لهم جنان وأنهار ماء، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟ أي: أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك، يعني: وموسى واتباعه فقراء ضعفاء. وهذا كقوله تعالى: ﴿لَمُحَسَّرٌ لِّقَادَى﴾ . فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذة الله نكال الآخرة والأولى ﴿التارعات: ٢٣ - ٢٥﴾ .

وقوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ يعني فرعون - عليه اللعنة - أنه خير من موسى ، عليه السلام، وقد كذب في قوله هذا كذبا بينا واضحا، فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة. ويعنى بقوله: ﴿مَهِينٌ﴾ كما قال سفيان: حقير. وقال قتادة، والسدى: يعني: ضعيف. وقال ابن جرير: يعني: لا ملك له ولا سلطان ولا مال. ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يعني: لا يكاد يفصح عن كلامه، فهو عسى حصر. قال السدى: أي: لا يكاد يفهم. وقال قتادة، والسدى، وابن جرير: يعني عسى اللسان. وقال سفيان: يعني في لسانه شيء من الجمرة حين وضعها في فيه وهو صغير. وهذا الذي قاله فرعون - لعنه الله - كذب واختلاق ، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد ، وهو ينظر إلى موسى ، عليه السلام ، بعين كافرة شقية ، وقد كان موسى ، عليه السلام ، من الجلالة والعظمة والبهاء في صورة يبهر أبصار ذوى الالباب .

وقوله: ﴿مَهِينٌ﴾ كذب ، بل هو المهين الحقير خلقة وخلقا ودينا . وموسى عليه السلام هو الشريف الرئيس الصادق البار الراشد. وقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ افتراء أيضا، فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة، فقد سأل الله، عز وجل، أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وقد استجاب الله له في قوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٢٦]، ويتقدير أن يكون قد بقى شيء لم يسأل إزالته، كما قاله الحسن البصرى، وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإبلاغ والإنهام، فالأشياء الخلقية التي ليست من فعل العبد لا يعاب بها ولا يذم عليها، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل فهو يدري هذا، وإنما أراد الترويج على رعيته ، فإنهم كانوا جهلة أضياء ، وهكذا قوله: ﴿فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ آسُورَةٌ (١) مِّنْ ذَهَبٍ﴾ أي: وهى ما يجعل فى الأيدى من الخلى، قاله ابن عباس وقتادة وغير واحد ﴿أَوْ جَاءَهُ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أي: يكتنفونه خدمة له ويشهدون بتصديقه، نظر إلى الشكل الظاهر، ولم يفهم

(١) أسورة : قراءة السبعة سوى حفص ، وهى أيضا قراءة المحافظ ابن كثير .

السر المعنوي الذي هو اظهر مما نظر إليه، لو كان يعلم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفْ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ أى: استخف عقولهم، فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، قال ابن عباس: ﴿آسَفُونَا﴾: اسخطونا. وقال الضحاك عنه: اغضبونا. وهكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، وغيرهم. عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيت الله عز وجل يعطي العبد ما شاء، وهو مقيم على معاصيه، فإنما ذلك استدراج منه له»، ثم تلا: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١). وقال عمر بن عبد العزيز: وجدت النعمة مع الغفلة، يعنى قوله: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سُلَٰلًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ قال أبو مجلز: ﴿سُلَٰلًا﴾: لمثل من عمل بعملهم. وقال هو ومجاهد: ﴿وَمَثَلًا﴾ أى: عبرة لمن بعدهم.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ﴿وَقَالُوا أَلَهْتُمَا حَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عِبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجْعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةَ فِي الْأَرْضِ يَحْمِلُونَ﴾ ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّسَاعَةِ فَلَا تَمُرُّكُ بِهَا وَأَنْتَ حَيٌّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُمْ لَكُذَّبُونَ﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ﴾
الْيَوْمِ ﴿

يقول تعالى مخبرا عن تعنت قريش في كفرهم وتمعدهم العناد والجدل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، يضحكون، أى: اعجبوا بذلك. وقال قتادة: يجزعون ويضحكون. وقال إبراهيم النخعي: يعرضون.

وكان السبب في ذلك ما ذكره ابن إسحاق في السيرة حيث قال: وجلس رسول الله ﷺ - فيما بلغنى - يوما مع الوليد بن المغيرة في المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ، فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. ثم قام رسول الله ﷺ، وأقبل عبد الله بن الزبير السهمي، حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله بن الزبير: أما والله لو وجدته لخصمته، سلوا محمدا: أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده، فتنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيرا، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم؟ فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبير،

(١) المسند (١٤٥/٤) غير أن الآية عند: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٤]. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٥٦١) وفي السلسلة الصحيحة (٤١٣) وقال: «هو عندى صحيح».

ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «كل من أحب أن يعبد من دون الله، فهو مع من عبده، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته»، فانزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَ الْحَسَنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنَّا مَبْعُودُونَ﴾ [الانبيا: ١٠١] أى: عيسى وعزير ومن عبد معهما من الاحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله، عز وجل، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أربابا من دون الله. ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الانبيا: ٢٦]، ونزل فيما يذكر من أمر عيسى وأنه يعبد من دون الله. وعجب الوليد ومن حضره من حجته وخصومته: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ﴾ أى: يصدون عن أمرك بذلك من قوله. ثم ذكر عيسى فقال: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ. وَتَوَشَّاهُ لِنَجِّنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةٌ فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ. وَإِنَّهُ لَنَعْلَمُ لِلسَّاعَةِ﴾ أى: ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام، فكفى به دليلا على علم الساعة، يقول: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (١).

وروى الإمام أحمد عن أبي يحيى - مولى ابن عقيل الانصارى - قال: قال ابن عباس: لقد علمت آية من القرآن ما سألنى عنها رجل قط، فما أدري أعلمها الناس فلم يسألوا عنها، أم لم يفظنوا لها فيسألوا عنها. قال: ثم طفق يحدثنا، فلما قام تلاومنا الا نكون سألناه عنها. فقلت: أنا لها إذا راح غدا. فلما راح الغد قلت: يا ابن عباس، ذكرت أمس أن آية من القرآن لم يسالك عنها رجل قط، فلا تدري أعلمها الناس فلم يسألوا عنها أم لم يفظنوا لها؟ فقلت: أخبرنى عنها وعن اللاتي قرأت قبلها. قال: نعم، إن رسول الله ﷺ قال لقريش: «يا معشر قريش، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خيرا»، وقد علمت قريش أن النصارى تعبد عيسى ابن مريم، وما تقول فى محمد، فقالوا: يا محمد، ألسنت تزعم أن عيسى كان نبيا وعيدا من عباد الله صالحا، فإن كنت صادقا كان ألهتهم كما تقولون؟ قال: فانزل الله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ﴾. قلت: ما يصدون؟ قال: يضحكون، ﴿وَإِنَّهُ لَنَعْلَمُ لِلسَّاعَةِ﴾ قال: هو خروج عيسى ابن مريم قبل القيامة (٢). وقال مجاهد فى قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ﴾: قالت قريش: إنما يريد محمد أن نعبد كما عبد قوم عيسى. ونحو هذا قال قتادة.

وقوله: ﴿وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ لَّمْ هُوَ﴾ قال قتادة: يقولون: ألهتنا خير منه. يعنون محمدا ﷺ. وقوله: ﴿مَا ضَرِبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أى: مراء، وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية؛ لأنها لما لا يعقل، وهى قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الانبيا: ٩٨]. ثم هى خطاب لقريش، وهم إنما كانوا يعبدون الاصنام والانداد، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يورده، فتعين أن مقاتلتهم إنما كانت جدلا منهم، ليسوا يعتقدون صحتها. وقد روى الإمام أحمد عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أورتوا الجدل»، ثم تلا هذه الآية: ﴿مَا ضَرِبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَبِيثُونَ﴾. وقد رواه الترمذى، وابن ماجه، وابن جرير. ثم قال الترمذى: حسن صحيح (٣).

وقوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ يعنى: عيسى، عليه السلام، ما هو إلا عبد أنعم الله عليه بالنبوة

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١٢/٢ - ١٤).

(٢) المسند (٢٩٢١) وقال الشيخ أحمد شاکر: «إسناده صحيح».

(٣) المسند (٢٥٦/٥) والترمذى (٣٢٥٣) وابن ماجه (٤٨) وابن جرير فى التفسير (٥٣ / ٢٥).

والرسالة، ﴿ وَجَعَلْنَاهُ مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ إِسْرَائِيلَ ﴾ أى: دلالة وحجة وبرهاننا على قدرتنا على ما نشاء. وقوله: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجْعَلْنَا مِنْكُمْ ﴾ أى: بذلك ﴿ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴾ قال السدى: يخلقونكم فيها. وقال ابن عباس، وقتادة: يخلف بعضهم بعضا، كما يخلف بعضهم بعضا. وهذا القول يستلزم الاول. وقال مجاهد: يعمرن الارض بديكم.

وقوله: ﴿ وَإِنَّ لَعَلَّمِ لِلسَّاعَةِ ﴾ الضمير فى ﴿ وَإِنَّ ﴾ على الصحيح أنه عائد على عيسى عليه السلام، فإن السياق فى ذكره، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَأَلْتُمِئِنَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ أى: قبل موت، عيسى، عليه الصلاة والسلام، ثم ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٥٩]، ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى: ﴿ وَإِنَّ لَعَلَّمِ لِلسَّاعَةِ ﴾ أى: أمانة ودليل على وقوع الساعة، قال مجاهد: ﴿ وَإِنَّ لَعَلَّمِ لِلسَّاعَةِ ﴾ أى: آية للساعة خروج عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة. وهكذا روى عن أبى هريرة، وابن عباس، والحسن، وقتادة، وغيرهم. وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ، أنه أخبر بنزول عيسى، عليه السلام، قبل يوم القيامة إماماً عادلاً، وحكما مقسطاً.

وقوله: ﴿ فَلَا تَمْتَرْنَ بِهَا ﴾ أى: لا تشكروا فيها، إنها واقعة وكائنة لا محالة، ﴿ وَأَنْتُمْ ﴾ أى: فيما أخبركم به ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ ولا يصدنكم الشيطان ﴿ أى: عن اتباع الحق ﴾ ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جنتكم بالحكمة ﴿ أى: بالنبوة ﴾ ﴿ وَلَأَبِينَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ قال ابن جرير: يعنى من الأمور الدينية لا الدنيوية. وهذا الذى قاله حسن جيد، ثم رد قول من زعم أن «بعض» هاهنا بمعنى «كل». وقوله: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى: فيما أمركم به، ﴿ وَأَطِيعُوا ﴾ فيما جنتكم به، ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ هذا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿ أى: أنا وأنتم عبيد له، فقراء إليه، مشتركون فى عبادته وحده لا شريك له، ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أى: هذا الذى جنتكم به هو الصراط المستقيم، وهو عبادة الرب، عز وجل، وحده. وقوله: ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ أى: اختلفت الفرق وصاروا شيعا فيه، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله - وهو الحق - ومنهم من يدعى أنه ولد الله، ومنهم من يقول: إنه الله - تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا - ولهذا قال: ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ أَلِيمٍ ﴾.

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿ يَتَعْبَادُونَ لِيَعْبَادُوا اللَّهَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ يُرْجَى الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا شَتَّهِبَ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا تَخْلِدُونَ ﴾ ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾

يقول تعالى: هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسل ﴿ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾؟ أى: فإنها كائنة لا محالة وواقعة، وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدين، فإذا جاءت إنما تحيىء وهم لا يشعرون بها، فحينئذ يندمون كل الندم، حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم. وقوله: ﴿ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ أى: كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله، عز وجل، فإنه دائم بديامه. وهذا كما قال إبراهيم، عليه السلام، لقومه: ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ

تَبَيَّنَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ۖ وَلَيُنَظَّرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ۚ وَأَمَّا زَكَاةُكُمْ فَانقُطُوا ۚ وَمَا زَكَاةُكُمْ إِلَّا لِنَفْسِكُمْ ۖ أَنْ تُقْبَلُوا ۚ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ صَائِرُونَ فِي حَيْثُ كُنْتُمْ ۚ ﴿٢٥﴾ . وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين .

وقوله: ﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ ثم بشرهم فقال: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ أى: آمنت قلوبهم وبواطنهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم . قال المعتمر بن سليمان ، عن أبيه: إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فرع، فينادى مناد: ﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ فيرجوها الناس كلهم، قال: فیتبعها: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ قال: فيياس الناس منها غير المؤمنين ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ أى: يقال لهم: ادخلوا الجنة ﴿ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ ﴾ أى: نظرائكم ﴿ تُنْحَبِرُونَ ﴾ أى تتعمون وتسدلون .

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ أى : زبدي آتية الطعام، ﴿ وَأَكْوَابٍ ﴾ وهى: آتية الشراب، أى: من ذهب لا خراطيم لها ولا عرى ، ﴿ وَلِيهَا مَا تَشْتَهَى الْأَنْفُسُ ﴾ - وقرا بعضهم: «تشتهي الأنفس» - ﴿ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾ أى: طيب الطعم والريح وحسن المنظر . ﴿ وَأَنْتُمْ فِيهَا ﴾ أى: فى الجنة ﴿ خَالِدُونَ ﴾ أى: لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حولا . ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان: ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى: أعمالكم الصالحة كانت سببا لشمول رحمة الله إياكم، فإنه لا يدخل أحدا عمله الجنة، ولكن بفضل من الله ورحمته . وإنما الدرجات تفاوتها بحسب عمل الصالحات . وقوله: ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أى : من جميع الأنواع ، ﴿ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أى : مهما اخترتم وأردتم . ولما ذكر الله تعالى الطعام والشراب، ذكر بعده الفاكهة لشم النعمة والغبطة .

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ لا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿ وَمَا ظَنَنْتُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ وَكَادُوا يَكْمُنُكَ لِيَقْضَىٰ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكَ مَكِينٌ ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ أَمْ أَلْمَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُتَرَمِّمُونَ ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلْ وَرُسُلَنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُمُونَ ﴾

لما ذكر تعالى حال السعداء، نبي بذكر الأشقياء، فقال: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . لا يُفْتَرُ عَنْهُمْ ﴾ أى: أى ساعة واحدة ﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أى: آيسون من كل خير، ﴿ وَمَا ظَنَنْتُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ أى: بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجج عليهم وإرسال الرسل إليهم، فكذبوا وعصوا، فجوزوا بذلك جزاء وفاقا، وما ريك بظلام للبيد . ﴿ وَتَافُوا بِمَا مَالِكٌ ﴾ وهو: خازن النار . روى البخارى عن صفوان بن يعلى، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ على المنبر: ﴿ وَتَافُوا بِمَا مَالِكٌ لِيَقْضَىٰ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ (١) أى: ليقبض أرواحنا فيريحنا عما نحن فيه، فإنهم كما قال تعالى: ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر: ٣٦] . وقال: ﴿ وَيَجْعَلُهَا الْأَشْقَى . الَّذِي يَصَلَّى النَّارَ الْكُبْرَى . ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ [الاعلى: ١١ - ١٣] ، فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك، ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ مَأْكُونٌ ﴾ قال ابن عباس: مكث ألف سنة، ثم قال: إنكم مأكون . أى: لا خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها .

ثم ذكر سبب شقوتهم وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال: ﴿ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أى: بيناه لكم

ووضحناه وفسرناه، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ أى: ولكن كانت سبحانه لا تقبله ولا تقبل عليه، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه، وتصد عن الحق وتأباه، وتبغض أهله، فعودوا على أنفسهم باللامه، واندموا حيث لا تنفعكم الندامة. ثم قال تعالى: ﴿أَمْ أَمْرًا أَمْرًا إِنَّا مُمْرُونَ﴾ قال مجاهد: أرادوا كيد شر فكفناهم. وهذا الذى قاله مجاهد كما قال تعالى: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]، وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون فى رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه، فكادهم الله، ورد وبال ذلك عليهم؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سُرْمَهُمْ وَنَجْوَهِمْ﴾ أى: سرهم وعلانيتهم، ﴿بَلَىٰ وَرُسُلًا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أى: نحن نعلم ما هم عليه، والملائكة أيضا يكتبون أعمالهم، صغيرها وكبيرها.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ ﴿سُبْحٰنَ رَبِّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿فَدَرَّهْمٌ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَمَا يَنْهَمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ ﴿وَلَكِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ﴿وَقِيلِهِ يَرْبِّ إِن هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُل سَلِّمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: لو فرض هذا لعبدته على ذلك؛ لانى عبد من عبيده، مطيع لجميع ما يأمرنى به، ليس عندى استكبار ولا إباء عن عبادته، فلو فرض كان هذا، ولكن هذا ممنوع فى حقه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضا، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحٰنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]. وقال بعض المفسرين فى قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: الأنفين. ومنهم سفيان الثوري، والبخارى - حكاه فقال: ويقال: ﴿أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾: الجاحدين، من عبد يعبد. وقال قتادة: هى كلمة من كلام العرب: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: إن ذلك لم يكن فلا يبنى. وقال مجاهد: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: اول من عبده ووحده وكذبكم. وقال البخارى: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾: الأنفين. وهما لغتان، رجل عابد وعبد. والاول اقرب على أنه شرط وجزاء، ولكن هو ممنوع.

ولهذا قال: ﴿سُبْحٰنَ رَبِّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أى: تعالى وتقدس وتزّه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد، فإنه فرد أحد صمد، لا نظير له ولا كفه له، فلا ولد له. وقوله: ﴿فَدَرَّهْمٌ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ أى: فى جهلهم وضلالهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ فى دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ وهو يوم القيامة، أى: فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم، ومآلهم، وحالهم فى ذلك اليوم.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ أى: هو إله من فى السماء، وإله من فى الأرض، يعبده أهلها، وكلهم خاضعون له، أدلاء بين يديه ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمٰوٰتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سُرْمَكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الانعام: ٣] أى: هو المدعو الله فى السموات والأرض. ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَمَا يَنْهَمَا﴾ أى: هو خالقهما ومالكهما والمتصرف فيهما، بلا مدافعة ولا ممانعة، فسبحانه وتعالى عن الولد، وتبارك: أى استقر له السلامة من العيوب

والتقاصر؛ لأنه الرب العلى العظيم، المالك للأشياء، الذى بيده أزمة الامور نقضا وإبراما، ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أى: لا يجليها لوقتها إلا هو، ﴿وَأَنَّهُ تَرْجِعُونَ﴾ أى: فيجارى كلا بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أى: من الاصنام والوثان ﴿الشَّفَاعَةَ﴾ أى: لا يقدرون على الشفاعة لهم، ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أى: لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم، فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له.

ثم قال: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أى: ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أى: هم يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعها، وحده لا شريك له فى ذلك، ومع هذا يعبدون معه غيره، من لا يملك شيئا ولا يقدر على شيء، فهم فى ذلك فى غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: وقال محمد: قيله، أى: شكنا إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه، فقال: يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، كما أخبر تعالى فى الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠] وهذا الذى قلناه هو قول ابن مسعود، ومجاهد، وقاتدة، وعليه فسر ابن جرير. قال البخارى: وقرأ عبد الله - يعنى ابن مسعود -: «وقال الرسول يارب» (١). وقال مجاهد فى قوله: ﴿وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ، قال: فأبر الله قول محمد. وقال قتادة: هو قول نبيكم ﷺ ، يشكو قومه إلى ربه عز وجل. وقوله: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ أى: المشركين، ﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾ أى: لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيئ، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلا وقولا، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ، هذا تهديد منه تعالى لهم، ولهذا أحل بهم بأسه الذى لا يرد، وأعلى دينه وكلمته، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد، حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا، وانتشر الإسلام فى المشارق والمغرب.